إخترنا للجندى

القائد الرهيب
تيمورلنك

بقلم : السيد فرج





القائد الرهيب

تيمورلنك

بقلم
السيد فرج

.. وكانت جيوشه تدك معاقل
آسـيا فتهـتز عروش أوربا ،
ويتلفت ملوكهـــا مذعورين ..
فقد كان يريد أن يحكم الدنيا
بأسرها !

مقدمة ....

قبل خمسمائة وسبعين عاما من أيامنا هذه ، حاول رجل أعرج متواضع النشأة أن يجعل من نفسه حاكما على العالم بأسره ، وقد حالفه التوفيق فى كل خطوة أقدم عليها ، فلم يعرف الهزيمة قط .. ولم يظفر بمثل سلطانه أحد .

وهناك على قبر فى مدينة سمرقند ـ عروس العواصم فى القرن الرابع عشر ـ نقشت العبارة الآتية :

(هنا المكان الذى استراح فيه العاهل المعظم والسلطان الأكبر ، والجندى القوى المهيب .. السيد تيمور ، قاهر العالم) .

**

بدأ على رقعة أرض صغيرة ، فى رفقة قطيع من الماشية ، في وسط آسيا ! فلم يكن ابن ملك كما كان الاسكندر المقدونى ، ولا خريج أكاديمية حربية كنابليون ، ولا كان وريث عصبية قبلية مثل جنكيز خان .. كما أنه لم يجد فى بلاده شعبا موحدا كالشعب المقدونى أو الشعب الفرنسى أو شعب المغول ! وانما هو الذى جمع الجيش ، ووحد الشعب ، وبسط نفوذه على آسيا وأوربا ، وهزم جيوش العالم ..

كان يدمر المدن ثم يعيد بناءها وفق هندسته الخاصة ، ويجعل القوافل تمر من أوربا الى آسيا ،ومن آسيا الى أوربا على حسب النظم التجارية التى وضعها بنفسه . ويجمع فى يده اقتصاديات جميع البلدان فيرسم خطوطها الأساسية ويضع ميزانياتها العامة ..

كان ينتصر بالرعب ، ويدمر قلوب أعدائه من الخوف قبل اللقاء ... هدم المدن وحصد الأرواح وأقام أهراما من جماجم خصومه .. واندفع لغزو آسيا وأوربا كالريح السوداء ، وكان التتار الذين يقودهم يقفزون وراء الغذاء والدماء والنساء !.

وقد لقبه أعداؤه بالذئب الأغبر آكل الأرض، على حين كان أنصاره يطلقون عليه : الأسد الفازى .

وعرفت امبراطوريته باسم «امبراطورية تيمور لنك» فقد نمت على يديه ، وانتهت بنهايته .



الأب .. والإبن

نشأ تيمور فى بيت صغير خشبى تختلط فيه الماشية بالسكان وكان أبوه رجلا متدينا يقضى وقته فى تلاوة القرآن ، وقد عزف عن الدنيا وآثر العبادة وكان لا يفتأ يحدث ابنه عن الله والاسلام والدنيا والوطن .. فأحاطه بالكثير .

قال له والده وهو يحدثه عن بلاده « لقد شرع جنكيز خان فى السيطرة على العالم فبلغ مراده ثم توفاه الله ، فانقسمت امبراطوريته الى أربع مناطق بين أولاده الثلاثة وأولاد ابنه الأكبر ـ الذى مات قبله ـ كما يحدث فى التركات الخاصة ! فكانت بلادنا من نصيب ابنه شاجتاى الذى أهمل أولاده فى ملكهم وانصرفوا للهوهم ومجونهم تاركين واليا من قبلهم يدبر الأمر ويرفع اليهم الأموال والثمرات » .

وقال يحدثه عن دين الله : « اننى يا بنى أعبد الله وأصلى على رسوله وأحترم الأولياء الصالحين والدراويش ، وعليك يا بنى أن تتمسك بمبادىء الاسلام الخمس : الشهادة ـ الصلاة ـ الصوم ـ الزكاة ـ الحج » .

ثم حدثه عن الدنيا فقال له : انها دنيا براقة ظاهرها جميل وباطنها ردىء فهى أشبه بوعاء ذهبى مملوء بالحيات والعقارب !

ونشأ تيمور متأثرا ببساطة أبيه ونظراته فى الحياة ولكنه كان مطبوعا بطابع عصره وميزات شباب جيله : الفروسـية والصيد والمباراة .. فكان يتلو كتاب الله ويرتاد الجوامع ويجلس الى الأئمة يسمع الى التفسير والحديث ، وكان أيضا يعتلى صهوة جـواده فيسبق أقرانه ويذهب الى الصيد فيبز رفقاءه ويشترك فى مباريات البولو أو الفروسية أو القتال فاذا هو سيد الحلبة ، وصاحب قصب السبق .

وكان قوى البنية بهى الطلعة طويل القامة عريض المنكبين كبير الرأس لامع العينين يصـوبهما فى محدثه فيسيطر عليـه بنظرته وصوته الخفيض العميق وحديثه الرتيب وثقته بنفسه ورزانته .

وكثيرا ما رئى تيمور فى حلقة الجامع يستمع الى الشيخ ، وفى مجالس القوافل ينصت الى نوادر التجار وأخبـار القتال ، وكان ـ وهو فى سن السابعة عشرة ـ كثير الصمت مغرما بالوحدة فيترك أصحابه الى مكان قفر ، يسرح النظر فى الأفق البعيد ويرسل الفكر وراء المجهول .. كأنما كان يستطلع البلاد المجاورة والعالم الذى سمع عنه ، أو كان يستشف المستقبل الذى ينتظره .. أو يفكر فى الطريق الذى سوف يسلكه .

وهكذا ترى أن الابن قد تأثر بالأب ، وقد تأثر بالبيئة ، وراح يصنع نفسه بنظراته الخاصة ومزاياه الموهوبة وأفكاره الخصوصية .. وشرع يذرع الطريق .. فقد عرف أن لكل انسان طريقه !



القائد الصغير

استخلص تيمور عددا من أصحابه ولداته بعد اختبار وتمحيص فصارت له فرقة من الفرسان الشجعان ذوى الاخلاص والحمية وبدأ يجوب معهم المدن والقفار المجاورة واستطاع أن يقطع على صهوات الخيل ألف ميل فى الجبال والوهاد حتى وصل بعد أسبوعين الى مضارب الأعراب حيث نزل فى ضيافتهم يستمع الى أحاديثهم ومغامراتهم وأخبار التجار ونوادر الترحال ، ويلعب معهم الشطرنج .

وفكر القائد الصغير .. فى أمر كبير .

كان قد اختلف مع عمه حاجى برلاس زعيم القبيلة ، فهجر تيمور بلده ورحل الى « سالى ساراى » وفكر فى أن يذهب لمقابلة الحاكم رأسا ، وهو الأمير كزجان حاكم سمرقند .

وانتقى جوادين من خيرة الجياد واصطحب معه خادمه القديم عبد الله .

ورحب الحاكم بالفارس الشاب وأعجب بمنطقه وألمعيته ، ووضعه تحت التجربة .. وهناك سلطت عليه العيون والآذان ليعلموا مبلغ فروسيته وشجاعته واخلاصه .. وبدأ هو يتطلع لتنظيمات الجيوش ووسائل التدريب وفنون الحكم .

وحدث ان أغار بعض المرتزقة على الحدود وجمعوا بعض الجياد ليهربوا بها ، فرأى الحاكم فرصة عملية لاختبار تيمور فاستدعاه وعهد اليه بالمهمة على رأس فرقة من الشبان الفرسان وسرعان ما انطلق تيمور واستمر نصف اليوم على صهوة جواده فى سرعة فائقة حتى لحق بالمغيرين فأحاط بهم واستولى على مغانمهم وعاد بها الى أصحابها فكافأه الحاكم وأهدى اليه قوسه الخاصة وصندوق سهامه ، وقربه منه وأولاه اهتمامه .

وظفر تيمور من حليفه الكبير كزجان بهديتين ثمينتين :

الأولى : زوجته الجميلة النبيلة الجاى ختون أغا ، وقد اختارها له الحاكم بنفسه من ذوات قرباه .

الثانية : رتبة البمباشى ، قائد الألف ، فأصبح تيمور قائدا بحق !.. وبدأ يدرس القيادة عمليا وتحت امرته المطلقة ألف جندى! ودخل تيمور الى ساحة القيادة تحت سمع التاريخ وبصره . وأدرك هو ذلك ، وعرف أنه فى طريق أهدافه العظمى .

ولهذا فانه حين رزقه الله غلاما اختار له اسم « جهانجير » أى « مالك العالم » .



الجندي السياسي

كان التتار فى القرن الرابع عشر لا يعرفون الاستقرار ولا يطيقون الثبات تحت امرة الحاكم ولهذا فقد استمرت المؤامرات والانقلابات ولم يكن يحول دون ذلك الا ملك قوى مهيب يحسب رؤساء العشائر حسابه ويلتزمون فى ظله حدودهم ، وقد كان طغلك خان العاهل المغولى هو الحاكم الحقيقى لبلاد ما وراء النهر وكان قد عهد لكاجان بالحكم وكان كاجان قويا وقديرا ولكن كانت لديه استهانة أتاحت لخصومه الفرصة ، وأخيرا كلفته حياته ، فقد خرج يوما الى الصيد بغير حرس فوثب عليه اثنان من رؤساء العشائر فقتلاه رميا بالسهام .

ولقد كان من الطبيعى أن يتولى ابن جاكان الحكم مكان والده ولكنه لم يطق العيش فى جو المكايد والفتنة والأطماع فقد تكاثر الطامعون فى الحكم واستشف الفتى الخطر فآثر السلامة ونزح عن البلاد ، وعلى أثر ذلك ظهر فى سمرقند «حاجى برلاس» و « جالير » ، من رؤساء العشائر وأخذا معا بزمام الأمور .

وقد كانت قاعدة الحكم فى ذلك الزمان أن اليد التى تقبض على السيف هى وحدها التى تستطيع أن تمسك بعصا الملك .. أى أن الحكم للأقوى .

ولم يرتض بقيـة الأمراء أن يكـون حاجى برلاس وبايزيد جالير حاكمين ، فاتجه كل أمير الى ولايته يحشد رجاله ويعد عدته لصـد أى عدوان ، وعصيان أى أمر ، وتفرق التتـار بين هذه المعسكرات وبقى تيمور فى المدينة الخضراء مع مئـات من رجاله الأشداء الأوفياء .

عندما اضطربت الحالة وأنذرت بالخطـر رأى طغلك خان أن يعيد الأمور الى نصابهـا فجاء بنفسه الى سمرقنـد ، وتضاربت أفكار الأمراء هل يخضعون لأمره أو يشقون عصا الطاعة .

أما تيمور ، فاتخذ قرارا جريئا قال : سأذهب للقـاء الخان الأكبر !

وربما كانت اللباقة أجدى فى هذه الحالة من المناوأة والقتال فلم يكن من الحكمة فى شىء أن ينزل تيمور الى المعركة قبل أن يستعد ، ولم يكن يعقل أن يواجه بعدة مئات من رجاله عشرات الآلاف من الجنود المنظمين القدماء فى خدمة عاهل المغول !

وكان تيمور قد فقد أباه وواراه التراب ، وودع زوجته وابنه ليقيما فى سلام عند أسرتها ، واهتدى بآراء أبيه الروحى ، الشيخ زين الدين ، ثم أخذ يجهز الهدايا الفاخرة والعطايا الثمينة ليقدمها الى الخان الأكبر .

كان تيمور أسرع المفكرين والمنفـذين ، فانطلق مع رجاله فى أبهى ثيابهم الرسـمية ، وسارت القـافلة الضخمة من الجمـال

والخيل المحملة بما خف حمله وغلا ثمنه تذرع الطريق ، وقد توقفت عن سيرها اضطرارا مرتين عندما فوجئت بطلائع قوات الخان ، واضطر تيمور الى أن يغمر قواد تلك الطلائع بالكثير مما معه من هدايا وثمرات .. وأخيرا بلغ مضارب الخان وأعجب الأمراء والقادة بتيمور ، فأدخلوه عنده بتقديم حسن فاستقبله مرحبا ، واستمع اليه معجبا واستطلع أفكاره ونظراته بنفس الاعجاب والتقدير الذى تلقى بهما هداياه ونفائسه .

وكان تيمور قد قدم نفسه للخان بأنه زعيم البرلاس متناسيا الحكام الآخرين ، وكان رد الخان أن منح تيمور رتبة الجنرال « تومان باشى » أى قائد المائة ألف ، وأعطاه براءة حكم الاقليم .

وقد تعرض تيمور لمؤامرات الطامعين فى الحكم مثل حاجى بارلاس وبايزيد جالير .. ولكن نجا من هذه المكايد وتعرضت البلاد لحرب أهلية فسارع الخان بنفسه لحسم الموقف فقتل بايزيد وهرب حاجى بارلاس حيث لقى مصرعه على أيدى قطاع الطريق .

وأقام الخان ابنه الياس حاكما على بلاد التتار بمعاونة الجنرال بيكيجوك .. كذلك عين « تيمور » أميرا لسمرقند .



تيمور الشريد

لم يكن تعيين تيمور حاكما على سمرقند أمرا مطلقا من الخان بل كان أمرا مقيدا .. ذلك أن حامية من المغول استمرت محتلة تحت امرة قائدها جنرال بيبكيجوك فشعر تيمور بغصة فى حلقه زاد من مرارتها أن جنود الحامية أخذوا يعيثون فى الأرض فسادا متاجرين فى الأرزاق مستهينين بالأعراض مما أثار حفيظة المسلمين وجعل الشيخ زين الدين يجأر بالشكوى ويثير الشعور ضد المحتلين العابثين ، ولهذا رأى تيمور ضرورة وضع حد لهذه المساخر فكتب الى الخان .. على حين تنبه الآخرون لموقف تيمور منهم فأرسلوا الى الخان أن تيمور يشق عصا الطاعة وانه بسبيل الخروج عن سلطانه ! فنجحت الوشاية ، وثار الخان وأرسل أمرا باعدام تيمور الذى بلغته الأنباء مبكرا وأحس بالخطر مقبلا فأسرع الى جياده ومعه زوجته ونحو عشرين من رجاله الأوفياء الأشداء فجمعوا ما خف حمله ولاذوا بالصحارى .. وبدأت مرحلة التشرد والمغامرة والمشقة .

وراحت القافلة المشردة تشق طريقها على الرمال الحمراء من بئر إلى بئر ، فالماء حياة الصحراء ، وأخذت الليالى والأيام تطوى ساعاتها فى بطء بين الألم والأمل ، ولكن كل تعب ومشقة وظلام كانت تبدده ابتسامة « الجا » سليلة الأمراء التى كانت تشع بنور

الأمل فتضيء لزوجها حياته ، وتوقظ روحه وتبعث فيه الأمل ، كانت « الجا » خير معين لزوجها فى أعصب ساعات الشدة واليأس، وكانت نفسها مؤمنة بأن حياته لا تنتهى هكذا فى التشرد والفاقة بل أن نجمه سيلمع ويضيء الدنيا بأسرها كما رأى والده فى منامه.

والتقى تيمور بشريد آخر كان بدوره أميرا على كابول ثم طارده الخان . كان الأمير حسين شقيق الجا زوجة تيمور فانضم الشريدان وتحالفا معا على ما كانا فيه من بلاء وقادا رجالهما الستين على أرض المغامرة والمشقة يخرجان من مأزق الى مأزق ، ويمرقان من شرك الى شرك حتى فقدا أغلب رجالهما ، ثم اتفقا على ان يبحث كل منهما عن مستقبله فى طريق .. حتى لا يقعا معا فى أزمة واحدة تقضى عليهما معا ، ومن ثم ذهب الأمير حسين وزوجته ورجاله ، وبقى تيمور وزوجته ورجل واحد وحصانان وبعض المؤن . وابتسمت الجا .. وقالت : يا مولاى ، ان هذه ليست النهاية !

وفى طريقه انضم اليه بعض الأعوان الفرسان المرتزقة ، ثم التقى تيمور بكثرة من رجاله القدماء ، وقد خرجوا فى ثلاث فرق للبحث عنه والانضمام الى قيادته ، وقد أخذ تيمور يتسلل الى سمرقند ليتعرف أحوالها ، ويجتمع سرا بالتتار بغية القيام بثورة ضد المغول ، ولكنه وجد أن الفرصة غير مواتية، وان المغول أكثر قوة ومنعة ، فآثر الرحيل الى كابل ليلتقى بالأمير حسين ، وقطع مع جيشه الصغير خمسمائة ميل فى ظروف جوية ومعنوية قاسية

حتى التقى الحليفان ، وشرعا فى العمل معا ، وكانت أول مهمة لهما أمير سجستان واخماد الثورة التى نشبت فى بلاده ، وقد انتهى الأمر بخضوع هذه البلاد لتيمور والأمير حسين ..

وفى خلال تلك المعارك أصيب تيمور بسهم فى يده ، وآخر فى قدمه اليمنى واستمرت عاهة قدمه فظل يعرج بها طول حياته ، ولذلك اشتهر باسم تيمور الأعرج .

ويبدو أن الأمير حسين قد اتخذ لنفسه القيادة دون تيمور ، فاتجه من تلقاء نفسه على رأس قوة من أنصاره بغية الحصول على انتصارات ضد المغول ، فاندفع فى مغامرة انتهت بهزيمته وتبديد جيشه واستطاع هو أن ينجو بنفسه ، وأن يعود .

وكان تيمور قد استعاد قواه ، وحشد جيشا من أربعة آلاف محارب ، وعزم على بدء المعركة ضد المغول ، فصعد شمالا حتى بلغ نهر آمو (جيجون) وبعث عيونه تكشف له مجريات الأمور ، فعلم أن بيكيجوك الحاكم العسكرى الطاغية ينشر الرعب فى المدينة ، ويسلب الأهالى أقواتهم .. فقرر تيمور أن يضرب ضربته !

ولما سمع القائد المغولى بما تناهى اليه من أمر تيمور ، أسرع بقواته الى احتلال نهر آمو ليمنع عبوره ، وقد خدعه تيمور متظاهرا بانصرافه عن العبور ،وأخذ يتلمس مخاضته حتى عبر النهر

فى ليلة ظلماء ، وأصبح وراء جيش المغول ، فهـزمه شر هزيمة ، وقبض على بيكيجوك فى الوقت الذى وصلت فيه الأنبـاء بموت طغلك خان ، فانصرف ابنه الياس ليستولى على عرش المغول .

وتقدم تيمور الى « المدينة الخضراء » فشدد عليها الحصار ، وفر حاكمها المغولى وحاميتها ودخلها تيمور ، الذى دانت له بلاد « ما وراء النهر » .



بين التتار والمغول

قويت شوكة تيمور ، وسارع بتنظيم قواته ، فقد كان يعلم أن المعركة آتية لا ريب فيها بينه وبين المغول ، وخرج ينظم دفاعاته بعيدا عن الغرض – كما صار يفعل القادة فى الحروب الحديثة – وجعل قواته قلبا وجناحين ، ولكل قسم قوة ضاربة وأخرى احتياطية ، وبذلك طبق مبدأ الحشد والاقتصاد فى القوة ، ووضع خطته على أساس أن تكون القوة الرئيسية فى الجناح الأيمن تحت قيادة الأمير حسين ، ووضع نفسه على رأس الجناح الأيسر.

وخيل لقوات تيمور أن الحظ تخلى عنها ، فقد أمطرت السماء مدرارا ، وأشيع أن المغول قد افتعلوا ذلك بقدرة السحر ! وتقوى اشاعة السحر هذه الى حد قول بعض المؤرخين : ان المطر لم ينقطع الا بعد مصرع أحد السحرة فى ثانى أيام المعركة ! كذلك تقوى بما لوحظ من استعداد المغول بالملابس الثقيلة والأغطية الواقية ..!

وقد ثبتت قوات تيمور فى هذا المأزق ، برغم أن مواضع دفاعهم صارت طينا وماء ، ولكن روحهم المعنوية كانت عالية ازاء تصميم قوى وادراك تام لأهمية المعركة وضرورة كسبها .

وبدأت المعركة بهجوم شديد من المغول جعل الجناح الأيسر يتراجع ، فدفع تيمور باحتياطيه ، ثم لمع فى ذهنه خاطر جرىء ..

فأصدر أمره بالتقدم فى بحر من الوحـــل ، واندفاع غير نظامى ، على حين مرق تيمور كالسهم الخاطف الى قلب الجيش المغولى ، وعلا صياح التتار ودقات الطبول ، فارتج على قيادة المغول،وظنوا أن النصر لخصومهم .. فاضطرب أمرهم وشرعوا فى الانسحاب .

وأخذ تيمور يرقب المغول من قمة تل مرتفع ، ويضع خطـــة استغلال النجاح ، ولكن جناحه الأيمن تحت قيادة الأمير حسين كان بطيئا فى حركته مضطربا فى قيادته فاضطر تيمور الى الانتظار مكانه ! وضاعت منه فرصة تطويق المغول ، والقضاء على قواتهم الرئيسية التى بدأت تتجمع وتستعيد شأنها .. وتعود الى القتال !

وأفلت زمام المعركة من يد تيمور بسبب أخطاء الأمير حسين واستهانته بأوامره وبدأ ضغط المغول يتخذ شكلا عاما على طول الجبهة ، واضطر الى التراجع نحو سمرقند فوجدها تدافع ببسالة فانحرف عنها ، واتجـــه الى الوادى لاعادة تنظيم قـــواته ، وضم متطوعين جددا .. وفى تلك الساعات الحالكة فقد تيمور زوجتـــه « الجا » على أثر مرض مفاجىء .. وقد كانت بمثابة الشعاع الذى يضى له فى الظلمات .

وكانت سمرقند قد تصلبت فى دفاعها وردت للمغيرين سهامهم الى نحورهم ، وأقبلت أفواج المتطوعين من بخارى وغيرها فانقلب ميزان المعركة ، وانهزم المغول .. وارتدوا عن المدينة بخســـارة كبيرة فى الأنفس والخيل والأسلحة ، ثم غادروا الاقليم كله .

وهكذا انتصرت روح الأهالى على أسلحة المعتدين ، وفازت المقاومات الشعبية على تكتيكات الغزاة .

واحتفلت سمرقند بالنصر فتعالت التكبيرات من المآذن وصدحت الموسيقات وانتشرت الأعلام ، وأقيمت صلوات الشكر، ودخل تيمور والأمير حسين المدينة فاستقبلا بحماسة بالغة ، وصارا مالكين لزمام الأمور من حدود الهند الى بحر آرال : الا أن تحالفهما الظاهر لم يكن يخلو من أسباب الكراهية والخداع !؟..



عملية تمويه

وبدأت المعركة بين تيمور والأمير حسين ، أى بدأت الحرب الأهلية لتقرير المصير وتوحيد الوطن الجديد تحت قيادة واحدة .

واستقر رأى تيمور على غزو « كرشى » ، وقد تم ذلك بعملية خداع رائعة .

فقد أذاع تيمور أنه سيتجه الى الجنوب لمقـابلة ملك الحيرة والتحالف معه على غزو الشمال ، ونقلت قوافل التجار هذه الأنباء واتجه تيمور فعلا الى الجنوب ريثما يستقر فى أذهان خصـومه صدق الاشاعة ، ثم انقلب فى الليل فعاد واستخدم أساليب التمويه والخداع لاخفاء موقفه ونياته فى الوقت الذى كانت حامية المدينة مطمئنة الى أنه فى طريقه الى الجنوب .. فلم يكن ثمة اسـتعداد أو ترقب !

وقام تيمور مع أحد رجاله بمهمة الاسـتطلاع لمعرفة منافـذ المدينة وخطوط دفاعها ومدى استعداد حاميتها ، وعلم أن الحراس ينامون الليل غير مبالين .. فأصدر أوامره للتسلل الهـادىء قبيل الفجر ، وعندما أشرقت الشمس كان رجاله قد استولوا على القلعة والدفاعات وسلمت الحامية وأعلنت خضوعها .. وانضوى الجميع تحت لواء تيمور .

وبدأ نجم تيمور فى الصعود ، وطار صـيته فى جميع الأقطار وانضم اليه رؤساء القبائل وأصحاب الزعامات وبعض كبار المغول على حين أخذ أتباع الأمير حسين ينفضون عنه ، وأخـذ نفوذه يتضاءل كما يحدث لقطعة من الثلج أمام حرارة الشمس المشرقة .. وقد اختلف الرواة فى تسجيل نهاية الأمير حسين، ولكن مما يذكر لتيمور أنه أعلن رفع يده عنه ، أى أنه لم يأمر بقتله نظرا لما كان بينهما من صلات قديمة !



زعيم التتار

عند وفاة الأمير حسين اجتمع زعماء القبائل من حدود الهند الى الأقاليم الشمالية ومعهم كبار رجال الدين وأخذوا ينظرون فيمن يولى زعامة التتار ، وكان رأى بعض الرؤساء أتباع نظام جنكيز فى أن يولى الزعماء أحد سلالته ، على حين رأى البعض أن تقسم البلاد الى أقاليم يتولى كل قائد قسما منها ، وقاوم أئمة المسلمين هذه الآراء .. وقال قائل : « ان سيف تيمور ليس أقل شأنا من سيف جنكيز خان » .

أما المحاربون فقد رأوا فى تيمور القائد القوى الذى يستطيع توحيد الصفوف ، وتوجيهها لحماية الدولة الناشئة ، وتدمير المغول القابعين فى الشمال ، وأما المسلمون فقد اختاروه لأنه مسلم يحمل السيف والمصحف ، فيقضى بهما على المشركين أعداء الاسلام ، مغول جنكيز خان .

وفى اليوم التالى لهذا المؤتمر الجامع قدم تيمور فاستقبله الأمراء وزعماء القبائل ورجال الدين وبايعوه جميعا سيدا وأميراً لبلاد ما وراء النهر .. وأقسم الجميع على المصحف أن يدينوا بالطاعة لتيمور ، وكان هذا فى عام ١٣٦٩ ، وقد بلغ تيمور الثانية والثلاثين من عمره !

وشرع الأمير الجديد ينظم حكومته ، ويعين وزراء وحكام المناطق ، وعجب المؤرخون للمحارب البدائى وقد صار مشرعا ومنظما ورئيس دولة يجمع خطوطها الرئيسية جميعا فى يده .

وعرف تيمور أن مركزه محفوف بالأخطار ، وانه لم يصل الى كرسى الامارة الا بنفسه وعزمه وشقائه فكان عليه أن يعمل بسرعة وقوة للقضاء على خصومه وتأمين سلامة مملكته الجديدة فسارع بالقضاء على أتباع الأمير حسين الذين ناصبوه بالأمس العداء فهدم مساكنهم وقيد أسراهم وحرق ممتلكاتهم ، ثم أخذ يبعث السرايا ويشن الهجمات على مشارف بلاد المغول لكى تعود ببعض الأسلحة وبعض الرءوس .. ووضع خطة التدمير على رأس خططه الحربية .

وقرر أن خير وسائل الدفاع : الهجوم .

وعنى تيمور بالضبط والربط ، فعلم قواده وجنوده احترام النظام وسرعة تنفيذ الأوامر وأخذ يكافىء المحسن ويعاقب المقصر ويبتكر فى العقوبات ، فالجندى الذى يثبت تخاذله فى المعركة أو خوفه من القتال كان يؤتى به فيربط فى حمار بحيث يصبح وجهه فى ذيل الحمار ، ثم يمر هذا المشهد الطريف فى شوارع سمرقند عدة أيام حتى يراه الجميع ، فتكون فيه سخرية ، وعظة !.

وكان شعور تيمور : الحكمة والشدة .

وقيل : انه يحكم بالعدل ويسخو فى المكافأة .

ولكنه كان فظيعا فى انتقامه ، ولا يكتفى بالنصر الحربى وانما يؤكده بالقتل والهدم والاحراق .. وبذلك يعلم خصومه بالنتيجة سلفا .

وقد قرر أن يقضى على جيرانه الأقوياء بالحسنى !

فلما لم يمتثلوا أرسل اليهم شـواظا من جهنم ، وبدأ بأمير خوارزم سيد كيفا وأورجانج وبحر ارال، وكان لا يزال على موالاته للمغول وتجاهله لتيمور .. فأرسل اليه تيمور وفـدا يحمل هدايا ونفائس وطلب يد ابنته خان زاده الجميلة لابنه الأكبر جاهنجير .

ولكن الأمير « حسين » الصوفى فطن للأمر وظن أن تيمور يريد سحب سلطانه وسلب ولايته فأرسل اليه يقول : « لقد غزوت خوارزم بحد السيف ، فمن أرادها فليأخذها بحد السيف » .

وهكذا لم يعد معدى عن القتال ، واذا رسالة أخرى تصل من الصوفى يقول فيها أميرها « لماذا نزهق أرواح الآخـرين ونجرى الدماء مدرارا ، تعال لملاقاتى وجها لوجه ، فيحسم أحدنا الموقف » وحددت الرسالة الزمان والمكان .

وانطلق تيمور برغم معارضة أعوانه ، وبلغ المكان وطلب اللقاء ولكن خصمه لم يكن عند كلمته ولم يجسر على الحضور ، فقال تيمور : « ان من ينقض وعده يستحق أن يحرم الحيـاة » وعاد ليقـود جيشه غير أنه سـمع بمرض الأمير الصـوفى ثم وفاته ..

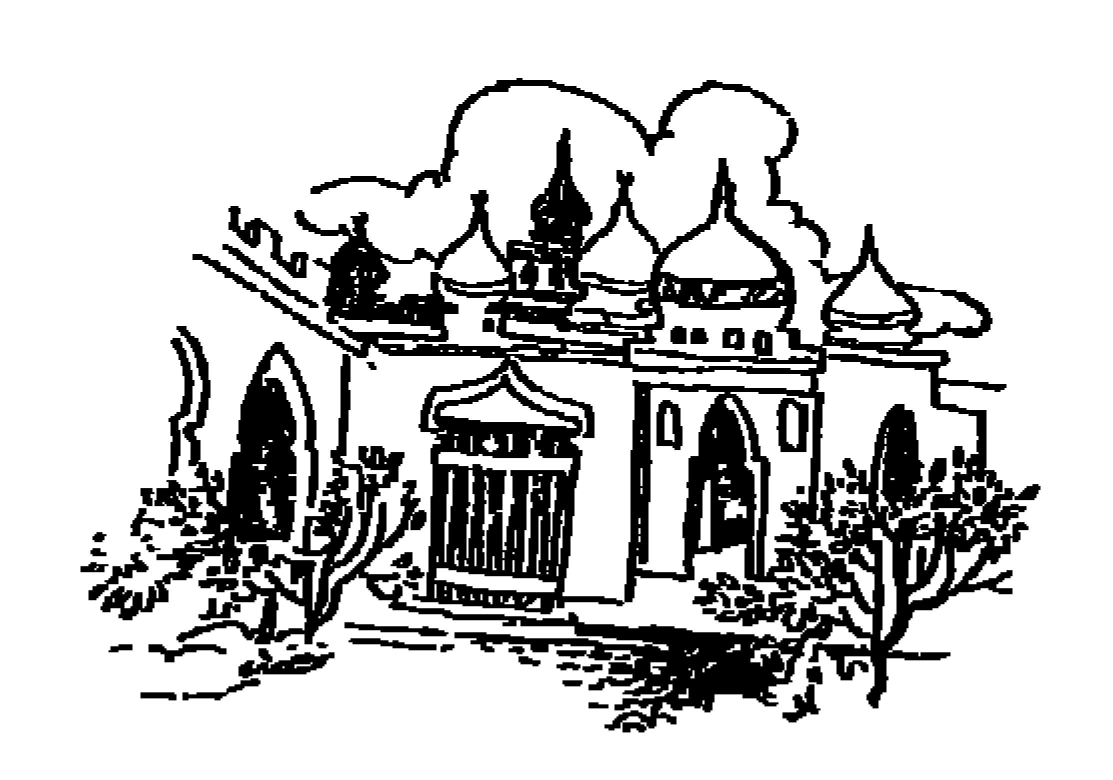
فانقشعت سحابة الحرب ورضخت البلاد لأمر تيمور ، وصار ابنه حاكما عليها وتزوج الأميرة خان زاده .

ونظر تيمور حوله ثم اتجه الى الجنوب .. الى « هراة » التى كان يجلس على أريكتها الأمير الشاب غيث الدين فدعاه تيمور الى زيارة سمرقند .. فرد على ذلك بعمل استحكامات الدفاع واعداد حاميات المقاومة .

وتحركت قوات تيمور جنوبا لغزو « الباب الحديدى » وبين دقات الطبول وصياح التتار تم غزو العاصمة فاندحرت الحاميات وفر الأهالى ، فطلب غيث الدين الصلح ، وأجيب الى طلبه وأرسل الى سمرقند .. ومعه البوابات الضخمة التى كانت تحمى هراة ، وأيضا الكنوز والأموال .

وكانت « هراة » عاصمة متقدمة أعظم من لندن وباريس فى ذلك الحين ، فكان أهلها نصف مليون على حين لم يزد سكان لندن أو باريس عن ٦٠ ألفا ، وكان بها مئات المدارس وثلاثة آلاف حمام وعشرة آلاف محل تجارى !

وفى عام ١٣٦٩ كان تيمور قد صار قائدا وحاكما وغازيا لمملكة بلغت خمسمائة ميل مربع فأخذ ينظر عبر مملكته الصغيرة ويرنو ببصره الى العالم الفسيح ، واتخذ لنفسه لقب الخاقان الأعظم .



سمرقند

أصبحت مدينة سمرقند حاضرة الملك الجديد، بالنسبة لمركزها الحيوى واتساعها ووفرة أسباب الحياة والنشاط فيها ، فبارح تيمور مدينته « الخضراء » برغم ما كان لها فى نفسه من مكانة وذكريات وقد أقام على قبر والده قبة ذهبية عظيمة ، وهدم القصر القديم الذى أضاء فى سالف الأيام بجمال زوجته الجا ، ثم أقام مكانه قصرا شائقا به حديقة جميلة وله بوابة فخمة عالية الذرى ، وقد صار القصر مشهورا باسم « البيت الأبيض » يقضى فيه تيمور فصل الشتاء .

والى جانب ما تميزت به سمرقند من مركز متوسط وخيرات وافرة كانت لها شهرة تاريخية ففيها أقام الاسكندر المقدونى فترة من أزهى أيام مجده ، وفيها عسكر جنكيز خان عندما كان يحصد الأعمار وينهب الأرزاق وقال عنها ابن بطوطة المؤرخ العربى الرحالة المشهور :

(هى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا ، مبنية على شاطىء واد يعرف بوادى القصرين عليه النواعير تسقى البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات ، وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن

علومهم وان كان أكثرها متهدما ، وقد خرب كثير من عمارة المدينة، ولا سور لها ولا أبواب عليها ، وفى داخلها البساتين .

وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة للغريب .

وبخارج سمرقند قبر « قثم » بن العباس بن عبد المطلب ،وهو الذى استشهد حين فتحها ..) .

وقد كانت سمرقند كثيرة الماء خصبة الأرض ينعم أهلها بأربعة مواسم فى السنة وتحيط بها السواقى تدر المـاء وتزيد الخصب وتكثر الخيرات .

وكان استقبال تيمور فى سمرقند حافلا عظيما ، خرجت البلدة على بكرة أبيها لاستقباله ، وأخذ أهلها يطلقـون على تيمور « الأسد الفاتح » ، « الملك العظيم » .

وما ان وطئت قـدم تيمور عاصمة ملـكه حتى مد لها يد الاصلاح فشق الشوارع الفسيحة وأقام القصور وانشأ الحدائق، وأقام القلاع على أنقاض الأحياء القديمةوجلب لها الصناع وأرباب الحرف لكى ينشئوا فيها صناعات وفنونا وعمرانا ، وجعل اللون الأزرق لونا رسميا فاشتهرت سمرقند باسم « المدينة الزرقاء » . وكانت موضع اعجاب سفراء الدول الذين ذكر المؤرخـون انهم كثيرا ما كانوا يتنزهون فى شوارعها النظيفة المستظلة بشجر الحور، وتزوج تيمور زوجة الأمير حسـين « سارة خانم » كعـادة ذلك

العهد ، وهى تنتسب لجنكيز خان ، وكانت موضع احترام الشعب وتقدير ذوى الرأى .

وبلغت سمرقند عصرها الذهبى بتقدم العمران ونشاط التجارة وزيادة الخيرات ، وذلك كله بين أضواء الانتصارات التى أحرزها تيمور وبلغ بها بلاد المغول ، حيث البقية الباقية من آثار جنكيز تعتز باسمه وتعتمد على جمع من سلالة المحاربين الأشداء الذين ورثوا الاندفاع فى الحرب والاقدام على السلب والنهب ، وكانت عاصمة المغول « سارى » على نهـــر الفولجا ـ شريان روســيا الحيوى ـ ولها النفوذ على سياسة أوربا الشرقية .



المعركة الكبرى

وكانت الدولة القوية الناشئة التى أقامها تيمور قد بلغت حدود الدولة الغاربة التى خلفها جنكيز . ولم تعد بينهما سوى حدود وهمية لا تدفع اغارة ولا تمنع التحرش والاشتباك ، ولهذا لم تكن عن الحرب مندوحة .

وقد حدث أن هرب أحد أمراء بلاد القرم من أتباع الخان ويدعى توكتاميش ، لجأ الى تيمور يحتمى به ، فبعث أوروس خان فى طلبه لأنه كان قاتلا وأنذر تيمور بالحرب اذا هو لم يسلم المجرم فرفض تيمور وأعاد وفد الخان برسالة مقتضبة قال فيها :

ان توكتاميش طلب حمايتى ، وليس بطوقى تسليمه !

وكان معنى هذا أنه مستعد لمحاربة الخان ..

والعجب أنه لما مات الخان راح توكتاميش يطالب بالعرش وأيده تيمور حتى حقق أمنيته .. فلم يحمد له انقاذه لحياته ، ولم يحفظ له جميل مساعدته حتى وصل الى سرير الحكم .. وانما قلب له ظهر المجن وقابل احسانه بالاساءة ، وقرر غزو سمرقند ونهب مملكة تيمور .

أخذ توكتاميش يعد العدة لمحاربة تيمور ، فانتهز فرصة غيابه فى نواحى خراسان وأطبق بقوات جرارة على مملكته وراح

يخرب ويدمر ما وسعته الفرصة ويثير القبائل ويشيع الفتنة ، وقد صدته قوات التتار التى كان قيادها معقودا لابن عم تيمور « عمر شيخ » وما أن بلغت هذه الأنباء أسماع تيمور حتى ارتد مسرعا ليأخذ بيده زمام الأمور ، وكان فى قدومه ما يحمل عـدوه على التفكير فى أسلم الوسائل وأفضل الحلول .. فقـرر توكتاميش الجـلاء وقنع من الغنيمة بالاياب ، تاركا خلفـه طريقا مخضبة بالدماء .

عاد تيمور الى عاصمة ملكه فنفض عنها طابع الأسى وبعث فى أهلها القوة ، وأعاد لجيشها الهيبة ، وقضى على الفتن التى رفعت رأسها فى غيابه وسلمت ألويتهـا لعدوه ، وكافأ الذين أحسـنوا الذود عن حماهم وعاقب الذين فرطوا فى واجبهم وأسـاءوا الى ديارهم ، وقضى على كل معالم الهزيمة والفوضى .. وأخذ يستعد لرد الصاع صاعين !

وأقبل توكتاميش على محاولته الثانيـة يدفع جيشا جـرارا داخل مملكة تيمور الذى كان يرتقب هذه العملية الخاطفة بخطة تجمع بين الجسارة والمفاجأة ، فلم يتجه الى قلب العدو .. وانمـا شغل المواجهة بقوات ساترة ، ودار حول جناح العدو فى حـركة تطويق فذة ! وشعر توكتاميش بأن قوات تيمور تحاول قطع خط الرجعة فانكفأ منسحبا وارتد الى حدوده مسرعا .. وهنا برزت حصافة تيمور وحسن تقـديره للموقف .. فانه لم يخدع بهـذا الانسحاب ، ولم يفكر فى تعقبه ، وانما آثر التريث وغالب زهوة

النصر حتى يدرس الموقف تماما ويختار المكان والزمان المناسبين لقهر خصمه ..

وهكذا تفادى تيمور الشرك الروسى الذى وقع فيه ـ بعد عشرات السنين ـ نابليون ، ثم هتلر !

وقد كان عليه قبل ذلك أن يقضى على ثورة بعض الولايات التابعة له التى أغرتها المعركة بشق عصا الطاعة .. فلما استتب له الأمر واجتمعت عنده القوة أخذ يرنو صوب المفازة الهائلة والأرض المجهولة حيث يكمن العدو الأكبر .. وقال تيمور :

الآن .. الى روسيا !



حملة روسيا

ان التاريخ يعيد نفسه ..

.. نعم فى نفس المفازة الثلجية القاسية ، وعلى ذلك الثـرى العريض قضت جيوش عدة وانهزم قادة جبـابرة ، وهناك حيث تقف الطبيعة فى وجه المغير تعطل تقدمه وتشل حركته وتنزل بـه البلاء فيعود من حيث أتى مثخنا بالجراح .. أو لايعود .

ان الحملة على روسيا عملية جريئة تدخل فى عدادالمخاطرة أو المجازفة .. أو الانتحار ، وقد انخدع الكثيرون اذ قـدروا الموقف من ناحية عدد الجيوش وأسلحتها ومعـداتها ولم يفطنوا الى الأحوال الجوية ، والى اعتياد الروس على طبيعة بلادهم ،والى خطط الروس التقليدية فى التراجع مسافات كبيرة مع تدمير المدن واشعال الحرائق حتى تفعل الطبيعة فعلها مع الغزاة ، وتجهـزهم للهزيمة النهائية .

هذا هو ماحدث لجيوش كثيرة أهمها وآخرها جيوش نابليون .. وهتلر .

وقد فكر تيمور فى عدوه تفكير القائد الحصيف الذى يجيد تقدير الموقف .

درس تيمور البلاد وطبيعتها ، وأهلها وجندها ، والخطط المنتظرة •• ودرس أيضا حالة قواته ، ومعداتها ، وما يجب أن يكون عليه تموينها •

وكانت خطته تلخص فى الآتى :

١ ـ اختيار أكثر الطرق ملاءمة للحملة وأهدافها •

٢ ـ تقدير ما تحتاج اليه قواته من أسلحة ومعدات ومؤن .

٣ ـ تجهيز الحملة الكافية لنقل المؤن والملابس الثقيلة والحاجات التى لا غنى عنها .

٤ ـ الاشتباك السريع مع العدو فى معركة قصيرة فاصلة•

٥ ـ تعبئة خيرة القوات والقواد لهذه المجازفة الكبرى •

وقد يقول قائل : ولماذا المجازفة ؟ اليس الأفضل أن يقنع تيمور بمملكته الكبرى فلا يعرض قواته وشعبه ومستقبله لعملية غير مأمونة العواقب •• ويكفى نفسه مشقة الحرب المجهولة••؟

والرد على ذلك أن الحرب واقعة لامحالة •• وقد تعرض تيمور من قبل لهجوم عدوه مرتين فاذا لم يعاجله بضربة قاصمة ، فسوف يعيش مهددا ، وتنكسر معنويات شعبه وجيشه ازاء هجمات العدو المتوالية ولهذا فانه خير له أن يهاجم •• وأن يجازف !•

ويمكن القول بأن تدبير تيمور لم يجعل حملته على روسيا مجازفة غير معروفة العواقب ، وانما جعلها خطة مدروسة يتوافر لها النجاح لأمور ثلاثة :

الأمر الأول :

انه أعد عدته لمهاجمة العدو فى معركة حاسمة ، وكان يقول « ان وجودى فى مكان الموقعة ومعى عشرة من الجند خير من وجودى بعيدا عنها ومعى عشرة آلاف » !.

الأمر الثانى :

انه قدر أهمية المفاجأة ، بأن يبادر خصمه فى وقت ومكان غير متوقعين قبل أن يتمكن خصمه من حشد حشوده واحكام خطته .

الأمر الثالث :

أنه لا يحرك قواته الا وقد حمل لها كل ما تحتاج اليه من أغذية ومؤن ومهمات .

خرج تيمور على رأس مائة وخمسين الف فارس وراح يتقدم على حذر ، من حصن الى آخر من حصون الحدود ، حتى اذا اضطرته الثلوج أن يتوقف ، أقام مكانه حتى انتهى فصل الشتاء وجاءت مع طلائع الصيف رسل الصلح والسلام بعث بها خصمه السادر فى غدره .. وقال تيمور :

لما جاءنى أميركم هاربا وضعته فى حمايتى ومنعت يد الخان أن تطوله ، وساعدته حتى وصل الى عرشكم ، فلما أصبح قويا تناسى خدماتى له وأغار على بلادى التى آوته من قبل عندما كان شريدا فأعمل القتل فى أهلها والفتنة فى ولاياتها والخراب والدمار فى مدنها ثم عاد فأرسل جيشا ثانيا لمحاربتى ، فلماشرعت فى التقدم للثأر أرسلكم قائلا : أنه يريد الصلح ، وأنا فى الواقع لا أومن كثيرا بعهود أميركم ، فاذا كان يريد الصلح حقا فماعليه الا أن يرسل وزيره «على بك » للاتفاق والتفاهم .

ولم يأت الوزير .. وظهرت اللعبة !.

وصمم تيمور على العمل بسرعة ..

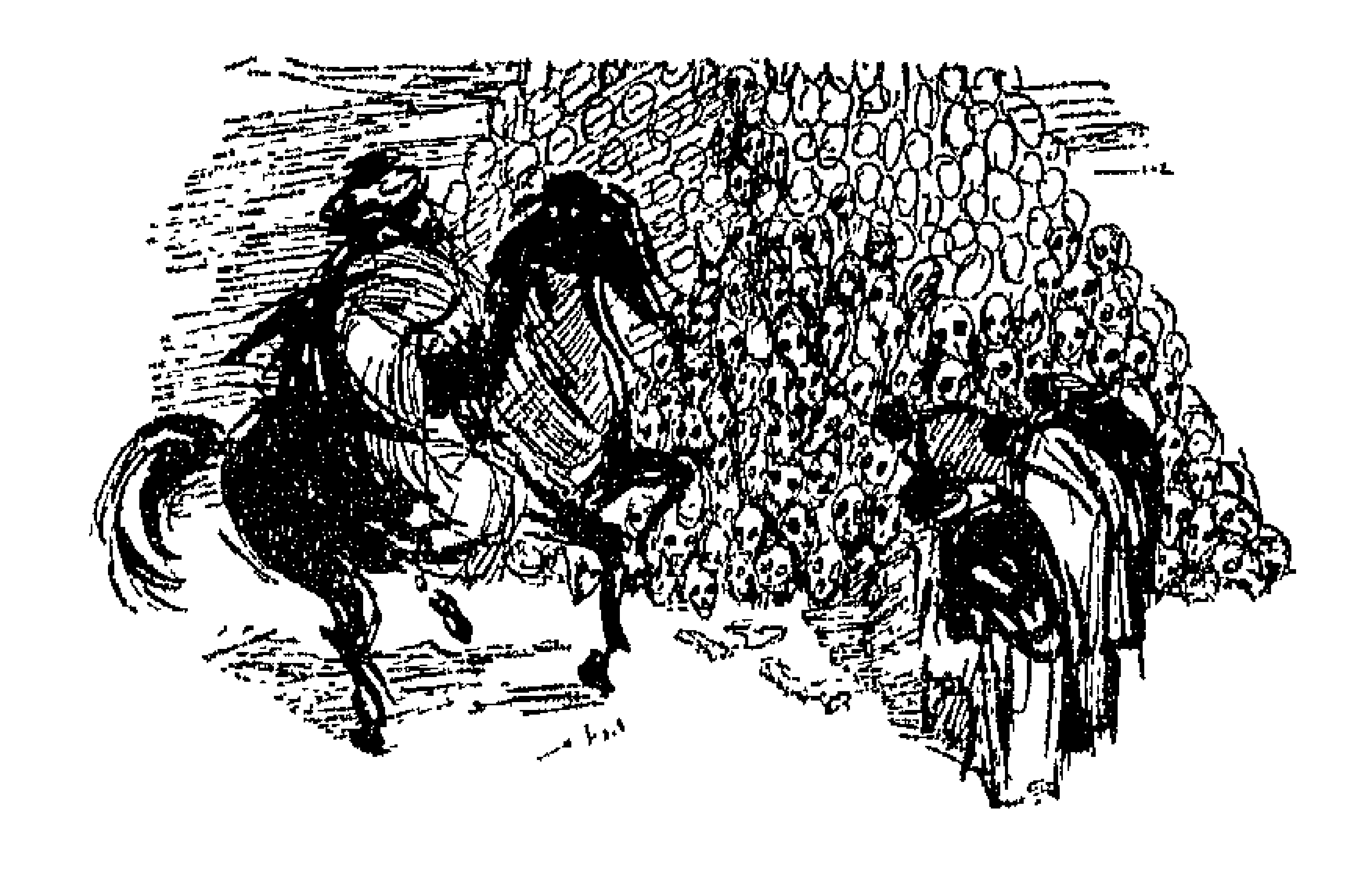
نظم قواته وسار فى تعبئة كاملة فى بلاد الأشباح ، وكان للناحية الادارية نصيب كبير من عنايته .. وبذلك استطاع أن يقطع ١٨٠٠ ميل فى خمسة أشهر وتعتبر هذه الرحلة من أشق الرحلات التى قطعها جيش فاتح .

وعندما بدأ التلاقى كان تيمور يطبق مبادىء الحرب ، فاستخدم الحشد وخفة الحركة والمفاجأة واستخدام الاحتياط فى الوقت المناسب ، والمطاردة ..

كانت خطة تيمور تقضى بوضع قواته فى مواجهة العدو لتثبيته وشغله عن العملية الرئيسية ، وهى حركة تطويق جنبه

الأيسر التى وفر لها القوة الضاربة والسرعة البالغة فطوت ذلك الجنب، فلما شرع الروس فى مقابلة ذلك الهجوم بهجوم فى الناحية المقابلة لم يغير تيمور خطته وانما دفع باحتياطيه لسد الثغرة وصد الهجمة ، وبذلك فوت على العدو فرصته ، فارتد على أعقابه وأخذ فى الجلاء .. ولم يكتف تيمور بهذه المعركة ، ولم يدع لخصمه الفرصة للانسحاب المنتظم بل عاجله بالمتابعة ! فلم يكن ممن يخدعون بارتداد العدو ، ولا ممن يرحمون عدوا منهزما ! وكانت المطاردة جد قاسية على الخصمين ولكن تيمور أحالها الى معركة دامية ، مجزرة نهب فيها أرواح مائة ألف وذخائرهم وأسلحتهم وأقواتهم .. وبعدها وافق على الهدنة !.

وعلى نفس المسرح عادت المعركة بعد ثلاث سنوات ولنفس السبب ! فقد نقض توكتاميش الهدنة ، فلم يجد تيمور بدا من وضع حد نهائى لهذه الأحداث فهجم على العاصمة «سارى» وقضى عليها قضاء مبرما وأحرق عدة مدن وعاد على انقاض مملكة المغول بعد غزوة تاريخية قضى فيها على خصومه قضاء أخيرا وزالت دولة المغول وأشرقت دولة التتار .. أو دولة تيمور .



فى بلاد فارس

كان تيمور متوقد الذهن دائم اليقظة لا يفتأ يمد بصره فيما حوله من تخوم وأقطار ، يصرع خصومه ويغير على جيرانه ويوسع فى مملكته الناشئة ويرقى احوال شعبه ، ويدير اموره جميعا على محور القوة والحنكة ، وقد ظل دهرا طويلا لايفكر فى غزو دولة المسلمين احتراما للناحية الدينية ، فلما ساء حكم الولاة وتدهورت احوال البلاد ، غير تيموز فكره وجعل خطته الجديدة متجهة الى فارس .

وقد كانت النكسة التى اصابت بلاد فارس هى التى اغرت تيمور بغزوها فقد كان الشاه ضعيفا والامراء يتنازعون السلطان وكان كرسى الحكم يغرى اصحاب النفوذ فينقلب الامير على الشاه أو يصرع الأخ أخاه ، ثم يقول « لقد حققنا قسمة عادلة ، لى مافوق الارض ، وله ما تحت الارض » ! ؟

واستغل حكام فارس بلادهم الغنية أسوأ استغلال وانصرفوا الى أهوائهم ومصالحهم الشخصية دون تقدير للصالح العام ، وكانت هناك ثمة اتفاقية بين تيمور والشاه من نوع اتفاقيات الود وعدم الاعتداء وقد احس الشاه بقرب منيته وخشى على بلاده من الفرقة والضياع ، وتذكر أن تيمور على استعداد فكتب اليه يسترضيه ويذكره « بالمعاهدة » أملا فى حفظ بلاده لولى عهده ، قال :

انك قد خنت العهد ، وحنثت بالوعد .

انني لم أقم بحمل اخجل منه سوى ذلك العبث الذى انصرفت اليه فى حياتى ، وهو من الامور التى يضطر اليها المرء اضطرارا .

انني اموت مطمئنا واسأل الله ان يؤازركم ويؤيدكم ، وكل رجائى أن تعطفوا على ولدى « زين العابدين » الذى سيجلس على العرش من بعدى وان تصلوا على روحى ..

ومات الشاه ، وكثر الطامعون فى عرشه ، وانتهى كل أمير الى بلد يرفع عليها رايته ، فاستقل أحدهم باصفهان والثانى بشيراز .. وهكذا كان يدعى لنفسه الحول والطول والاستقلال .. وكانت رسل تيمور يرقبون مجرى الأمور ، فلما بلغته أنباء التطاحن وأخبار الفرقة قرر أن يهبط على الغنيمة فينال نصيبه .. وأى نصيب ! ؟

عزا تيمور أرض فارس فى عام ١٣٨٦ ، غزوة بغير قتال ، فقد استقبله على مشارف اصفهان كبار اهل المدينة يعرضون عليه تسليم بلادهم ، ويرتضون الجزية التى يفرضها ولكن حدثت بعض مناوشات واشتباكات بين الأهالى والجنود ، فانتهزها تيمورفرصة سائغة تناسب أسلوبه المعهود فى الغزو فاقتحم المدينة وعصف بأهلها وأمر أن يحمل اليه كل جندى من جنوده رأس أحدالخصوم فحملوا له سبعين ألف جمجمة صنع منها هرما هندسيا بالغ الروعة !

وخضعت فارس لحكم التتار ، ودفعت الجزية ، وخطب باسم تيمور فى الجوامع وعين من قبله واليا عليها .



إمبراطورية تيمور

فى عام ١٣٨٣ كان تيمور قد بلـغ الخمسين من عمره وهو يحكم امبراطورية واسعة الأرجاء نامية الثورة مترامية الأطراف ، وقد ذاع لقب « الامير تيمور » واشـتهرت مملكته باسـم امبراطورية ماوراء النهر ، أو امبراطورية تيمور .

وكان الفاتح الكبـير كلما هم بمسير اندفع حوله رجـاله كالريح الهوجاء لا تصمد أمامها الحصون ولا تثبت حيالها الجيوش فالتتار كانوا قوما غير متمدينين ، الحرب شريعتهم والغزو مبتغاهم لامعنى للمعركة عندهم غير القتل والتدمير والسبى والغنائم ، وقد وصفهم ابن عربشاه ، فقال :

« كان جيش تيمور مؤلفا من رجال توران وأبطـال ايران ، ونمور تركستان وفهود سجستان وصقور الدشت والخطا ونسور المغول وكواسر الحيتان وأفاعى حجند وثعابين ايدكان ، وهوام خوارزم وجوارح جرجان وعقبان صغانيان ، وضوارى حصـار شادمان ، وفوارس فارس ، وأسود خراسان ، وضباع الجبـل وليوث جازندران وسباع الجبال وتماسيح رشمدار وطالقـان ، وأهل قبائل خور وكرمان وطلس أرباب طيالس أصبهان وذئـاب الرى وغزنى وهمدان ، وأفيال الهند والسند وملتان وكبـاش اللوروثيران شواهق الفور وعقارب شهرزور وحشرات عسـكر

عكرم وجند يسابور .. مع ما أضيف اليهم من أعيار الخدم وفواعل التراكمة والأوباش والحشم وكلاب النهـاب من رعاع العـرب وهمج العجم وحثالة عباد الوثن وأنجاس مجوس الأمم ، ممـا لا يكتنفه ديوان ولا يحيط به دفتر حسبان » !

ومهما يكن فى هذا الوصف الغريب من مبالغات وتشبيهات لاذعة ، فان احدا لايستطيع أن يدفع عن جيش تيمور مالصق به من صفات الهمجية والوحشية ، وما اقترن باغاراته واعتداءاته من حوادث مشئومة وأعمال نكراء ترفع عن أصحابها صفة الانسانية وعلامات المدنية .

ولكن تلك الرقعة من السواد التى احاطت بتاريخ تيمور لاتمنع من النظر بعين التقدير والاعتبار لتلك الشخصية العالمية الفذة التى لمعت فى الظلمة الحالكـة وشقت طريقها فى الصـخر والشوك ، وانطلقت من النشأة المتواضعة الى السيطرة العريضة والشهرة المدوية ، واجتمع لهذه الشخصية من المواهب العسكرية والمزايا السياسية ، ماجعل لصاحبها مـكانته الثابتة فى التـاريخ واسمه المدوى فى قائمة العباقرة من جميع العصور .

وقد برزت عبقرية تيمور العسـكرية فى قيادته الحـكيمة لجمهرة همجية لاتعترف بالقواعد والاصول فخاض بها الاهوال ، ونازل بها اعظم الجيوش فى زمانه وغزا الحصون المنيعة ، وقضى على الممالك العتيدة .. كما برزت عبقريته السياسية فى ادارته لدفة

الحكم واشرافه على جميع الشئون السياسية والاقتصادية والمدنية فى امبراطورية شاسعة الارجاء مختلفة المذاهب متعددة الاجناس .

كان اذا غزا مملكة وادخلها فى طاعته عين عليها واليا من ابنائها يسوس أمرها فى ظلال توجيهاته ومراميه ، يجمع له الجزية ويدين له بالولاء ، ويأخذ ابناء الأمراء الى العاصمة سمرقند رهائن حرب فاذا ظهرت فى بلادهم مؤامرات ، أو خيانات ، دفع هؤلاء الأمراء حياتهم مقدمة للانتقام .

وكان معنيا بترقية بلاده ومدنيتها ، وقد اشتهر عنه ابتكاره لنظام البريد واهتمامه بالمواصلات ففتح الطرق ، واقام الجسور ، ومد أنابيب المياه ووضع الجمرك والمكوس ، وجعل فى الطرق الطويلة محطات للخيول والمياه .

وجاء وصف نظام البريد الذى ابتدعه تيمور فى كتاب ابن بطوطة ، ومنه :

البريد صنفان : بريد الخيل ، وبريد الرجالة ، فاما بريد الخيل فيسمونه « الولاق » وهى خيل تكون للسلطان أو الحاكم أو الامير فى كل مسافة اربعة أميال .

اما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد أو يكون اقل من ذلك الى الثلث ، وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال

مستعدين للحركة قد شدوا اوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل من نحاس ، فاذا خـرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى وخرج يشتد بمنتهى جهـده ، فاذا سمع الرجال الذين بالقباب طبوت الجلاجل تأهبوا له فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومرق باقصى جهد وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى المحطة الاخرى .. ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه ، وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة من مكان الى اخر ، وفقا لرغبة الامير أو الحاكم أو من يقوم مقامه .

وجعل تيمور لجيشه نظاما وقواعد وحدودا لايخرج عنها احد ، فكان « الضبط والربط » الذى عرفناه حديثا هو الاساس الذى بنى عليه جيشه فتحول الهمج الى جند نظاميين يعرف كل منهم مكانه فى العمل وحدوده فى المعاملة ، وكان الجندى يتناول راتبا معينا ولا يسمح له بالاعتداء على أحد أو التطاول على غيره .

وكان التجار يدفعون الضرائب على حسب تجارتهم ،فكان ذلك من أسباب الدخل الوافر ، وكان أكثر القوافل فى ذلك العهـد تفد الى مملكة تيمور وتمـر من القسطنطينية الى بلاد فارس فسمرقند فبلاد الهند ومن البحر الأسود الى خليـج فارس الى

خراسان .. وبذلك كانت طرق التجارة العالمية تحت ناظـريه ، وكانت وارداته تفوق واردات ملك فرنسا فى عهده .

ومثلما اهتم تيمور بشئون التجارة كان معنيا بالزراعةواصلاح أحوال الفلاحين ، فقد كان يعتقد أن الفلاحين هم مصدر الثـروة ومنبع القوة للجيش والوطن .

وكان تيمور شخصية يحف بها الجلال وتحوطها الهيبة ،وكان يطيل المكث بين حرسه الخاص الذى كان يبلغ خمسة وستين ألفا من الرجال الشجعان ذوى البسالة والاخلاص ، وقد كان يجزل لهم فى العطاء .. وكانت شخصيته كجندى ترتفع فيه على شخصية الحاكم فقد شب على صهوة جواده ودان له الملك بحد سيفهولذلك كان معروفا أن تيمور كثير التنقل وان أكثر مكان عاش فيه هـو ظهر حصانه .

ان الرجل الذى حنكته التجارب وصنعته الأحداث الهائلة ظهر على مسرح التاريخ بسيفه وعقله فبهر الأنظار واجتذب تقدير المؤرخين والمراقبين بعظيم مزاياه وجلائل أعماله ، وقد عـاشت عاصمتهسمرقند سنواتذهبية تنعم بترف الانتصاروملاذ الحضارة وخيرات التجارة العالمية التى كانت تمر بها من كل حدب وصوب، وهى البلدة المتواضعة التى تسلمها تيمور صغيرة بسيطة بيوتهـا

من الخشب والطين ، ففتح فيها الشوارع والميادين ، وأقام المبانى وأنشأ الحدائق ، وجملها وزينها وأحسن خلقها فصارت درة البلاد الآسيوية وكبرى مدن العالم ، وجلب لها الصناع والفنيين والكتاب والعلماء ، وشيد الدور العمومية والمجامع ومراكز الاستعلام ومراصد الفلك ، ولم تلهه فتوحه وغزواته عن التقدم المدنى فحمل الرقى الى بلاده والخير والجمال لعاصمته ، والمدنية والحضارة لشعبه والذكرى الخالدة لبطولته وفطانته وخططه وأعماله .



ثورات وغزوات

لم تكن حياة تيمور سهلة فى أية مرحلة من مراحلها ولم يكن ميسورا أن يستقر الأمن والسلام بعد أن امتدت أطراف امبراطوريته ولكنه كان مولعا بالصعب معتادا على المشقة لا تكاد الثورة تنشب هنا أو هناك حتى يطير اليها وسرعان ما يقضى عليها ويشتد فى عقاب مضرميها .

فلما حدثت الشاه منصور نفسه أن يشق عصا الطاعة على تيمور ويرفع علم الثورة فى فارس ويأخذ بزمام ملكها تحرك الجيش الى البلاد الثائرة فلجأ الشاه الى حصنه الحصين «القصر الأبيض» حيث أعد عدته لاقامة مديدة ودفاع لا قبل لأحد بتحطيمه ، فقد كان القصر بمثابة حصن منيع فى قلب الجبال يصعب الوصول اليه لصعوبة المرتقى وضيق المسلك وتعذر استخدام أدوات الحصار ، كما أنه كان مزودا بالمؤن والمياه وأسباب الحياة ، مما يجعله يصمد عدة سنوات ، وكانت الحامية التى تدافع عنه شديدة البأس واسعة الخبرة بشئون الدفاع وفنون القتال .

ودارت المعركة بين المهاجمين والمدافعين وأخذت قوات تيمور تدور حول القصر الحصين تختبر مسالكه وتكشف موانعه وتتلقى بين الحين والحين دفعات قوية من سهام المدافع يمطرونهم بها فى دقة وكثرة حتى تعرض الهجوم للاخفاق لولا دورة جديدة من

دورات تيمور الموسومة بالجـرأة والاندفاع ، ظهرت على أثرها ثغرة تدفقت منها القوات بغزارة ، فانهارت معنويات المدافعـين واضطرب نظامهم وسقطت خطتهم واستسلم القصر بمن فيه وقبض تيمور على الشاه منصور فقتله وقضي على رءوس الفتنة وعادت بلاد فارس الى قبضته القوية .

وأصبح تيمور على حدود البلاد العربية !

وكانت أخباره قد سبقته اليهـا ، وأحس أمراؤها بالخطـر الداهم ، فراحوا ينشدون الوحدة ويبحثون وسائل دفع الغـزو التترى الفظيع الذى اقترب بخيله ورجله وأصبح على الأبواب ، وكان أول اتفاق ابرم بين مصر وبغداد ، واستطاع هذا المحور أن يضم الى صفوفه الثائرين على التتـار كالتركمان والقبـائل التى دخلت الحدود لائذة طالبة الغوث واستعد صاحب بغداد ــ الذى كان فى وجه العاصفة ــ فجمع أمواله وكنوزه وبعث بها الى مصر وكانت جميع هذه المحاولات والمؤامرات تبلغ تيمور عن طـريق عيونه وجواسيسه .

دخلت قوات تيمور بغـداد فلم تلق مقاومة تذكر فقـد فر السلطان هاربا الى مصر وترك البلاد بغير قيادة فاستسلمت واجتمع كبارها فأعربوا عن خضوعهم لعاهل التتار ، وصـار يدعى له فى الجوامع .

وأرسل تيمور الى سلطان مصر ينبئه بما وصل الى علمه من أنباء المؤامرات وإنه من الصــواب التسليم بالأمر الواقع حقنــا للدماء وحتى يكون هناك أمل فى التفاهم والوفاق والســلام بين المملكتين .

عندما وصلت رسل تيمور الي مصر تحمل الى سلطانها رسالة العاهل التــترى لم يأبه السلطان بهذا التهــديد وأساء استقبال المبعوثين وأمر بقتلهم فضربت أعناقهم ، ثم تقدمت القوات المصرية بمساعدة العرب والمماليك والتركمــان والأتراك فدخلت بغــداد وجعلتها تابعة لمصر .

وكان تيمور فى ذلك الوقت ينهب الطريق فى غزوة مظفرة الى الهند . قتل مائة ألف ونهب الذخائر والكنوز التى اشتهرت بهــا دلهى وجلب معه الفيلة والخيرات والصناع ، وعاد من الهند عام ١٣٩٩ .. وفى رأسه فكرة غزو العالم العربى .



تقدير الموقف

كان تيمور يطرح الفكرة أمام ناظريه ويرى الموقف من عدة جهات :

١ ــ حالة الجو : الفصل المناسب للعملية .

٢ ــ الماء والكلأ : ليضمن تموين قواته .

٣ ــ الطريق المــأمون : الذى يوصــله الى الغرض دون أن يتعرض لأعداء آخرين .

٤ ــ قوة خصومه : كيف يفرقها ويقضى على قسم بعد آخر .

وقد رأى تيمور أن خصــومه هم : الترك ، والتركمــان ، والعرب ، وأهل جورجيا ، اذا سار الى بغداد تعرض لهجوم الترك من ناحية ، ومصر من الناحية الأخرى .. وراح يعمل بالحكمة قبل الحــــربة .

كتب الى بايزيد ــ سلطان الترك ــ يناشده الوقــوف على الحياد فى حربه ضد التركمان والعرب ويحذره فى الوقت نفسه ، فرد عليه بايزيد بكتاب قال فيه :

« ليس من عادة الأتراك أن يتخلوا عن رجل طلب مساعدتهم، فأرسل اليه تيمور منذرا ومهددا ، وبينما كانت الرسائل متبــادلة

كانت قوات تيمور قد اجتاحت « سيواس » وقضت على سكانها الأرمن وأبقت على المسلمين .. ثم حول عنان جواده فلم يمض للقاء الترك وانما فاجأ الحدود السورية عام ١٤٠١ .

وكتب تيمور الى والى حلب :

« اننا وصلنا فى العام الماضى الى البلاد الحلبية لأخذ القصاص من قتلة رسلنا ، ثم بلغنا موت السلطان الظاهر ــ وبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا اليهم وأظفرنا الله بهم ثم رجعنا الى الكرج فأظفرنا الله بهم ، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبى ابن عثمان ــ يقصد السلطان يزيد ــ فأردنا عرك أذنه فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاده كما بلغكم ونحن نرسل الكتب الى السلطان بمصر فلا يعود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريبنا « أكلمش » الذى أسروه فان لم يفعلوا فدماء المسلمين فى أعناقهم والسلام » .

ومثلما حدث فى مصر ، حدث فى حلب : ضربت أعناق رسل تيمور .

وأخذت حلب تستعد وتتحصن وامتلأ أهلها وحاميتها حماسة لدفع الخطر المقبل ، ومهما يكن من أمر هذه الاستعدادات فقد كان واضحا أن معلومات أمير حلب عن تيمور كانت ناقصة وان تقدير الموقف لم يكن صحيحا اذ سرعان ما أطبقت القوات التترية على حلب فدمرتها وقضت على حاميتها وجعلت عاليها سافلها ، وانتهكوا حرماتها وداسوا مقدساتها .

جاء فى « كنوز الذهب » :

(ان جيش تيمور لما دخل الى حلب نهب وأحرق وسبى وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيقتلونه من يدها و ...... فلجأت النساء عند ذلك الى الجامع ظنا من أن هذا يقيهن أيدى الكفرة ، وصارت المرأة تطلى وجهها بطين أو بشىء حتى لا ترى بشرتها من حسنها فيأتى الجندى من التتار ويغسل وجهها و ......!)

واستسلم ذوو الشأن فى حلب ، ومع هذا قتلهم تيمور جميعا وأحرق المدينة بعد أن ظفر بكنوزها وذخائرها ، وأقام فيها نحو شهر وجنوده ينهبون ويخربون ويسرفون فى القتل والنهب والاعتداء .. وبنى من رءوس القتلى عشر مآذن .. ويقال انه قضى على عشرين ألف رجل فى هذه الغزوة النكراء .

وفعل التتار بأهل حماة ما فعلوا بأهل حلب من قتل وتدمير وسبى ونهب ، واستسلمت حمص بغير قتال ، وسجل تيمور على رخامة بالجامع الأموى بحماة العبارة الآتية :

(ان الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الى بغداد فجاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا وظفرت طائفة من التركمان بجماعة من رجالنا فسجنوهم فتوجهنا لاستخلاص قريبنا من أيدى مخالفينا ..) .



التتار .. والنار والدمار

اجتاح التتار الشام وأطبقوا على دمشق ، وكان ملكها قد بارحها لائذا بالفرار الى مصر فلما أرسل تيمور الى نائب دمشق رسولاً قتله نائب الملك قبل أن يستمع الى رسالته مثلما فعل نائب حلب من قبل .. وكان الثمن فادحا .. القضاء على أعظم مدينة وأجمل عاصمة فى ذلك العهد .

ذكر ابن اياس : انه كان بين أهل دمشق وبين جنود تيمور فى أول يوم موقعة عظيمة قتل فيها من جند تيمور ألف انسان فأرسل تيمور يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم ، ويمشى بينه وبين أهل دمشق فى الصلح ، فلما أتى رسول تيمور بهذه الرسالة تشاور أهل دمشق فيمن يرسلونه الى تيمور فوقع اختيارهم على القاضى تقى الدين بن مفلح بن الحنبلى ، لأنه كان انسانا طلق اللسان يعرف التركية والعربية ، فأرخوه من أعلى السور ومعه خمسة من أعيان دمشق ، فغاب عند تيمور ساعة ثم رجع من عنده ، فأخبر بأن تيمور تلطف معه فى القول ، وقال له :

« هذه بلد فيها الأنبياء وقد عتقها لهم » .. وشرح من محاسن تيمور شيئا كثيرا ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله ويرغبهم فى طاعته ، فصار أهل البلد فرقتين ، فرقة ترى ما رآه هذا القاضى ، وفرقة ترى محاربته ، وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة القاضى

ومحاربة تيمور ، ثم غلب رأى القاضى وجماعته فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب القلعة وقال لهم .

ـ ان فعلتم أحرقت البلدة جميعها .

ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلبة سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما .

ثم قبض على القاضى وجماعته وأودعهم الحديد !

وذكر غيره : انه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نودى فى الناس بالرحيل من ظاهرها الى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا فى ذلك ثم قدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف أهلها ، وهموا بالجلاء فمنعوا من ذلك ، ونودى من سافر نهب ، فعاد اليها من كان خرج منها .

وحصنت دمشق ، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق ونصبت المكاحل على أسوار المدينة استعدادا للقتال ، ثم نزل تيمور بجيشه فى قطنة فملأت جنوده الأرض كثرة ، وصار بين جند دمشق وبين جند تيمور موقعة لم يتمكن بها تيمور من اقتحام المدينة ، ثم هرب السلطان الى مصر لما بلغه أن هناك مؤامرة ضده .

وكان قد اجتمع فى دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القرى ممن خرج جافلا من تيمور ، ما عدا الجند الذين فى دمشق ، ولما أصبحوا وقد فقدوا سلطانهم

وأمراءهم أغلقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلدة ونادوا بالجهاد ، فتهيأ أهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من أعلى الأسوار أشد قتال ، وردوا التتار عن السور والخندق ، وأسروا منهم جماعة حاولوا اقتحام باب دمشق، وأخذوا من خيولهم عددا كبيرا ، وقتلوا منهم نحو الألف ، وأدخلوا رءوسهم الى المدينة ، ولما أعيا تيمور أمرهم جعل يخادعهم فأرسل يريد الصلح .

وطلب تيمور أولا تسعة أصناف من المأكول والمشروب والملبوس وغيره ، وهذه هى عادته فى كل بلد يفتحها ، فأجابه الدمشقيون الى ما طلب باقتناع القاضى كما قدمنا .

وتقرر أن يجبى تيمور من دمشق ألف ألف دينار ، وفرض المبلغ على الناس فقاموا به من غير مشقة عظيمة ، ولكن تيمور عاد يقول انه يطلب عشرة أضعاف هذا المبلغ ، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم . ثم فرض عليهم تيمور أن يسلموه أموال الذين انهزموا وأسلحتهم ففعلوا ذلك ، ثم طلب جميع ما فى دمشق من السلاح جليله وحقيره فأخرجوه كله فلما فرغ من ذلك قبض على القاضى وجماعته وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ففرقه على أمرائه وقسم البلد بينهم فساروا اليها بجنودهم وحواشيهم وأخذ كل منهم مقامه فى محلة من المحلات وألزموا أهلها باخراج كل ما عندهم

ودام هذا البلاء عدة أيام ، ثم أمر تيمور رجاله بالدخول وسيوفهم مشهورة ، فنهبوا ما قدروا عليه وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمـره خمس سنين فما دونها ، وسـاقوا الجميع مربوطين فى الحبال ثم طرحوا النار فى المنازل والدور والمسـاجد وكان اليوم عاصف الريح فعم الحريق البلد حتى صار لهيب النار يناطح السحاب .

وعملت النار فى البلد ثلاثة أيام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد أن قام ثمانين يوما ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق ، وزالت أبوابه ، وتفطر رخامه ولم يبق غير جورة قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودوزها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالا بالية ورسوما خالية ولم يبق فيها غير الأطفال .

وفوق ذلك كله ومع ما منيت به دمشق من قتل سـكانها ، واحراق مصانعها وبيوتها . واستخراج أموالها وطرائفها ،أصابتها من تيمور لنك مصيبة لا تقل عن تلك ، أصابت منها الصميم فلم تبق ولم تذر .

قال ابن عربشاه فى تفصيل هذا الهول (وبينمـا كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق ، أخذ هو يطلب الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع ، وأرباب الفضل ، واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام ، وارتحل وجيشه ، وقد أخذ من نفائس الأموال فوق الطاقة والامكان ، وتحملوا عـدا ذلك ما عجزت عنه قـوة

استطاعتهم فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب والمنازل ، ويلقـونه شيئا فشيئا ، فى أوعر المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل، وأصبحت القفـار والبرارى والجبـال والصحارى من الأمتعـة والأقمشة كأنها سوق أو معرض وكأن الأرض قد فتحت خزائنها وأظهرت من المعادن وغيرها كامنها ، وأخذ تيمور من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع وكل ما هو صاحب فن من الفنون،أو بارع من النساجين والخياطين والحجارين ، والنجارين ، والاقباعية ، والبيـاطرة ، والنقاشين ، والقـواسين ، وبالجملة أهـل كل فن وصناعة ، ولم يترك الفقهـاء ، والعلماء ، والأفاضـل ، وحافظ القرآن ، والعبيد ، والنسـاء ، والصبيان بما لا يسعه الضـبط والوصف) .

وجاء فى الضوء اللامع : ان تيمور كان يسلك الجد مع القريب والبعيد ، ولا يحب المزاح ، ويلعب الشطرنج وله فيه اليد الطولى ومهارة فائقة حتى انه زاد فيه جملا وبغلا ، بحيث لم يكن يلاعبه فيه الا أفراد ..

وكان ذا رأى صائب ، ومكايد فى الحروب عجيبة وفراسـة قل أن تخطىء ، عارفا بالتواريخ لادمانه على سماعهـا لا يخلو مجلسه من قراءة شيء منها سفرا وحضرا ، مغرما بمن حوله معرفة بصناعة ما اذا كان بارعا فيها ، حاذقا باللغة الفارسية ، والتركية ، والمغولية الخاصة ، ويعتمد قواعد جنكيز خان أصلا .

مع التاريخ

رحل تيمور عن دمشق ، وقد أصبحت أطلالا لامال فيهـاولا رجال ، ولا مساكن ، ولا حيوان ، صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ، فجرى من العربان والعشيرة مالم يجر عليهم من جنود تيمور ، فذهبت حرمة المملكة ، وعزم السلطان الناصر على العودة الى دمشق ، ثم بلغه أن تيمور رحل عنها وهو مريض فعدل عن حملته ، وأرسل تيمور الى صاحب مصر (سودون) نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قريبه الذى كان أسر فى أيام الملك الظاهر برقوق ، وانه اذا أطلقه يطلق ما عنده من الأسرى ، فأطلقه وكساه وأحسن اليه ، فلما وصل جماعة السلطان ومعهم قريب تيمور الى معسكره، أكرمهم واعتذر مما وقع منه وقال : هذا كان مقدرا ...

وقد رحل تيمور عن دمشق ولم يتعدها الى فلسطين ، فسلمت سورية الجنوبية من شره ...

وكانت أكثر المدن الصغرى فى أواسط سورية قد خضعت له بحكم الطبيعة ومنها طرابلس وقد أحضر له منها مال ، واجتـاح بعلبك ونهبها ، ولما وصل الى حلب حرقها مرة ثانية ، وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل أمراء

كل من وجدهم فى طريقه وأخذ من كان فى قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم ، والواقع أن تخريبات تيمور فى البلاد السورية ، لا يتأتى وقوع مثلها فى عشرات الأعوام ، عملها بجيشه الجرار فى عشرات من الأيام .

قال تيمور : ان ما فعله كان مقدرا ، فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين والسفاكين بيد أنه كان مغرى بغزو البلاد الاسلامية كما يظهر لأنه لم يترك قطرا اسلاميا الا تناوله بالبلاء والمحق حتى انه كان يريد غزو افريقية كما فتح آسيا ، يقال : انه لما اجتمع بابن خلدون المؤرخ المغربى المشهور سأله :

أين بلدك ؟

فقال ابن خلدون : بالمغرب الجوانى .

فقال : ــ وما معنى الجوانى فى وصف المغرب .

فقال : هو فى العرف معناه الداخلى أى الأبعد .

فقال له تيمور : أريد أن تكتب لى بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها .

فكتب له ابن خلدون ما طلب ، فدفعه تيمور الى أحد رجاله لترجمته الى اللسان المغربى ، ثم هرب ابن خلدون الى مصر ناجيا بنفسه مخافة أن يأخذه معه الى بلاده .



بغداد بعد دمشق

نقطة سوداء فى جبين الفاتح التترى أضاعت سمعته كجندى وشوهت تاريخه كبطل ، فهو لم يعرف فى حربه حدود الحرب ، ولم يرع تقاليد القتال ، وانما كانت خطته القتل والتدمير والخراب ، لم يحارب الجنود فحسب ، وانما أجرى سيفه على النساء والأطفال ولم يدمر المواقع وحدها ولكن دمر المدن وهدم البيوت وأشاع الفوضى والخراب ..

لم يعتمد على البراعة الحربية وانما أدار القتال بروح السفاكين الهمج وترك كل خطة حربية مفتوحة بعد النصر ليتيح لرجاله ما كانوا عليه من اجرام وفسق وسلب ونهب .

الذين دافعوا عن تيمور قالوا : انه مد فى حبال الوحشية ليخيف خصومه ، وقضى بالتنكيل والعذاب لأعدائه حتى يعلم مصيره كل من تحدثه نفسه بقتاله أو الخروج عليه ولكن الجندية الحق تبرأ من أفعال تيمور وقومه التتار ، وستظل النقطة السوداء فى تاريخه وتاريخهم تعمهم وتحط من شأنهم ، فالقوة وحدها بغير الحق ، والنظام ــ مآلها الزوال .. ولهذا دالت دولة التتار عقب موت عاهلهم تيمور ... ولم يعد يذكر سوى وحشية تيمور وهمجيته .

وقد ساعد تيمور على احراز النصر وتقويض العروش وتدمير الشعوب أن خصومه كانوا غير منظمين فلو قدر للبلاد العربية الاتحاد والتضامن لوقفت فى وجه الطاغية وردته على أعقابه مهما كانت قوته وشدته ، ان الذى فتح الباب على مصراعيه للتتار هو عدم الاتحاد ، ولهذا صرع التتار خصومهم دولة بعد دولة ...

لم يكن فى مصر أو الشام رجل قوى بعيد النظر يستطيع أن يدفع هذه البلاد الى الاتحاد فى مواجهة الخطر ، وأن يعد جيشا قويا موحدا يضم اليه فلول الثائرين والهاربين والناقمين ، ويوطد صلاته بالأتراك فتكون ثمة خطة واحدة تضغط على قوات التتار من أكثر من ناحية فتصمد لها وتودى بها وتقضى عليها .

لقد كان معروفا ان التتار لا يتركون بلادا تنعم بالسلم وتزدهر بالخيرات حتى تهبط عليها جحافلهم تقتل وتسبى وتدمر وتخرب.. فكيف قابل المسلمون فى الشام ومصر وتركيا هذا الخطر ؟.. كان بايزيد ملك الترك معتزا بسطوته وقوة جيشه ، وانه وحده كفيل بالقضاء على التتار فلم يتحرك حين دهم التتار دمشق وبغداد ،وظل ملتزما حلمه حتى هزمت دمشق ثم بغداد ، وأخيرا دارت عليه الدائرة .

أما صاحب بغداد ـ السلطان أحمد ـ فكان قد فكر فى الخطر المرتقب ، وكانت خطته أن يبارح بغداد مع صفوة جيشه الى حيث يلتقى بالجيش التركى وينضم اليه فى قتال التتار ...كانت

الخطة متأخرة ، وعرف تيمور بها ، فقد كانت مخابراته واسعة الحيلة وجواسيسه تعمل فى كل مكان ، وتأتيه بأدق الأخبار ، وبتفاصيل الخطط .

غادر تيمور البلاد السورية الى ضفاف الفرات سنة ١٤٠١ ، وأراد أن يعمل بسرعة فقد كان عليه أن يقضى على بغداد فى أيام قليلة ليحول وجهته الى الترك الذين كانوا يستعدون لمحاربته .

بعث تيمور الى نائب حاكم بغداد يخبره بين التسليم ، أو التدمير . فرفض التسليم ، ونادى على قومه بالجهاد ، واحتمى خلف الحصون والأسوار فضيع على التتار فرصة الغزو بلا حرب، والفتح بلا مشقة وخاصة ان تيمور كان يتطلب انتصارا عاجلا ، وغزوا سهلا بعد عناء المسير عدة أميال ... وذلك فى الوقت الذى كانت كثرة من جيوشه تتأهب فى تبريز لمعركة ضد الترك .

وفكر تيمور فى ترك بغداد الا أن موقعها أغراه ، ومركزها الأدبى شده اليها ، فقد كانت مفتاح الموقف فى الشرق العربى ، والحصن الأخير الذى يعتد به ، فأراد أن يجعل منها الضربة قبل النهائية التى يدوى صداها عند الترك فتحدث الأثر المعنوى المنشود .

وأخذ التتار يعدون العدة لحصار بغداد واقتحامها فأرسل تيمور الى ابنه (شاه روك) أن يأتى اليه فى عشر فرق ، ومعه أدوات الحصار ، وأرسل الى ابنه سليمان أن يأتى اليه ببعض

الفـــرق من سمرقند .. وذلك لمواجهـــة معركتين فاصلتين حان موعدهما .

ولما جاء (شاه روك) بجنـــده أمر رجاله ، وكان عددهم يبلغ المائة ألف نسمة بالمظاهرة حول أسوار المدينة لعل فى هـــذه المظاهرة ما يحمل سكان بغداد على طلب الصلح والتسليم ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ، وظل سكان بغداد يعتصمون بأسوارهم ، فأغضب ذلك تيمور ، وراح ينصرف الى محاصرة المدينـــة بشدة وقوة وحمق .

ونصبت آلات الحصار ، وأخـــذت الحجارة تندفع نحـــو الأسوار فتهدم بعضها حينا ، وترتد مدحورة حينا آخـــر ، حتى تمكن التتار من فتح ثغرة فى جانب من السور ، ولكنهم وجدوا أن البغداديين أقاموا وراء السور الخارجى سورا آخر ، وقد أخذوا مكانهم فى أعلاه ، يدفعون عن مدينتهم عادية الغـــزاة ، ويرمونهم بالحجارة والأقواس .

وكان الحر شديدا لاهبا لا يستطيع المرء معـــه أن يقضى فى الشمس المحرقة برهة من الزمن ، حتى لقد كانت الطيور تسقط من الجو لا حراك بها ، وكان يضطر التتار أنفســـهم ما بين حاشيتى النهار الى الاختباء فى الظل ، لا يظهرون للعيان الا فى أول النهار وآخره .

ولكن تيمور لم يضرب ضربته القاضية الا فى ضحوة النهار ، وفى منتصفه ، وهو الوقت الذى ينصرف فيــه البغداديون عادة للراحة ظنا منهم ان أحدا لن يهاجمهم فى مثل هذه الساعة المحرقة ، وبذلك تمكن تيمور من اقتحام أحد جانبى السور ، وعندئذ أمر رجاله كلهم بالهجوم ، وكانت ساعة يشيب من هــولها الأطفــال، فأصبحت دار السلام دارِ الدم والضنك والقتل والسلب والنهب، وأما القتلى فلا يمكن أن يعدهم حاسب ، ولا يستطاع لهم حصر، ولقد أخبر مؤرخو تيمور نفسه أنهم يبلغون تسعين ألف نسمة ، وأن مائة وعشرين ســارية من رءوس القتــلى نصبت فى الأرض الفضاء .

أما الأسوار فقد دمرت ، وكذلك المنازل أحرقت ، ولم يترك تيمور فى بغداد غير بعض المساجد ، وكذلك كانت نهاية بغــداد عاصمة العباسيين ، ومفخرة البلاد العربية فى ذلك الحين .

وقد أعيدت عمارة بغــداد بعد ذلك العهد الا أنهــا أضاعت مكانتها السابقة العالمية التى كانت تتمتع بها ، وتفخر بها على المدن والعواصم وأصبحت مدينــة عادية لا شأن لها فى ســياسة العالم العربى ، ولم يكتف تيمور باحراق المدينــة والفتك بسكانها بل راح يبعث بخبر سقوط عاصمة العباسيين الى جميع المدن والحواضر فى مملكته ، والى بايزيد ملك العثمانيين أيضا .

سقطت بغداد ، وقضى التتار على كل عرق فيها ينبض بالحياة، وبارحها تيمور ومعه كنوزها وخيراتها ، ولوى عنان جواده الى

تبريز لمحاربة الترك ، وبذلك نجت مصر من شره ، وانتهت معاركه فى البلاد العربية .. وكانت بغداد خاتمة الأهوال .

ولم يقف المؤرخون طويلا عند الحديث عن هذه المعارك ، فلم يكن للفن الحربى نصيب من العناية وانما كان اجماع المراجع وصفا اجماليا مليئا بالدعاية مشحونا بالحديث عن فظاعة التتار ، واندفاعهم الخطير الى القتل والتدمير والسلب والنهب ، ولهذا يصعب على دارسى التاريخ العسكرى التحقق من التفاصيل والوصول الى خطط الفريقين والوقوف على التقدير الصحيح للمواقف المختلفة . غير أن البحث فى شتى المراجع للملمين بمبادىء الحرب ينتهى بعدة نتائج حاسمة كلها تدل على ما كان يتمتع به تيمورلنك من موهبة حربية فذة ، ومبادىء ونظم استنها لنفسه وطبقها فى معاركه فكان له النصر دائما فى كل حرب خاضها ، وفى أية معركة أدار رحاها .

ومن أهم المبادىء التى جرى عليها تيمورلنك :

(١) المعلومات : سبق تيمورلنك أهل عصره فى استخدام الجاسوسية والطابور الخامس ، ولعله جرى فى ذلك مجرى جنكيز خان ، فكلاهما كانت له مقدرة فذة فى استخدام عناصر الاستطلاع والجاسوسية ، وحقق بذلك قدرا وافرا من المعلومات الوافرة التى كشفت .

(٢) الحشد : كانت قوات التتار أكثر من الخصوم فى أية معركة ، وكان تيمورلنك يعتمد فى سرعة انهاء المعركة على جيوش جرارة تربو على عدد خصومه فكان له التفوق العددى فى ساعة المعركة الحاسمة .

وكان يسير على تعبئة كاملة واستعداد تام لأى طارىء فى القتال المرتقب .

(٣) القتال الهجومى : وكان الهجوم الميزة الغالبة على أعمال التتار فحروبهم كانت سلسلة من الغارات والهجمات الشديدة ولم يعرف عن خططهم الحربية غير وسيلة واحدة : الهجوم .

(٤) خفة الحركة : وكان التتار يفوقون سواهم فى خفة الحركة فهم أبناء الصحراء وفرسان التنقل العاجل ، وأصحاب الغارات التى تعتمد على السرعة والجرأة وقد اعتادت خيلهم العدو السريع وانطبعت نفوسهم بالاندفاع الخاطف .

(٥) الروح المعنوية : لا غرو أن معنويات التتار كانت أقوى بكثير من غيرهم فهؤلاء الهمج الذين لا يعرفون الحياة الا أنها غزو وقتل وتدمير والذين استمروا يندفعون فى غزوة بعد أخرى كانوا لايعبئون بالمشقة ولا يعرفون للهزيمة معنى .. فليس هناك ما يخشون عليه الخسران .

(٦) النصر بالرعب : كانت أخبار التتار تفتح لهم أبواب المدن قبل وصول الجيوش وتهزم روح العدو قبل اللقاء ، ولهذا كان تيمورلنك يتعمد أن تذاع أخبار فتوحه وما جرى لخصومه من مصائب وويلات حتى تهتز لهذه الأنباء قلوب الملوك والأمراء ، فاذا هم التتار بمهاجمتهم عرفوا سلفا ما سوف يحل بهم ، وبذلك تكون الهزيمة المعنوية فاتحة الهزيمة المادية .

أسباب تفوق تيمورلنك

وبهذا يمكن تلخيص أسباب انتصارات تيمورلنك الى العوامل الآتية :

١ ـ التفوق العددى .

٢ ـ المعلومات .

٣ ـ الروح الهجومية .

٤ ـ الروح المعنوية .

٥ ـ الدعاية .

٦ ـ كفاية الناحية الادارية .

وليس بوسع قائد عالمى حديث أن يجىء بأكثـــر مما جاء به تيمورلنك .. الذى سبق بخمسمائة سنة ! والفضل للمتقدم ، كما يقولون .

فهرس

الدار القومية للطباعة والنشر